# المنهج السُّنَني في تفسير الإمام عبد الحميد ابن باديس للقرآن

# The Sunnī Approach in the Interpretation of the Qur'an by Imam Abdel Hamid Ben Badis

الباحث: د. مراد بلخير

جامعة تلمسان، الجزائر

mourad.belkhir@univ-tlemcen.dz

**Abstract**

This study establishes a theoretical and applied framework for a new approach to TAFSIR, called the MANHAJ SUNANI to the interpretation of the Qur 'an, which has been cared for by modern-day reformist scholars; The need of the nation to understand the words of Allah Almighty in accordance with the requirements of their time, which opens them to a good understanding of the problems of the nation and ways to advance it from its repression. Imam Abdul Hamid Ibne Badis was one of the pioneers of this approach in its interpretation; so this study looked at how this approach was used and its impact on the interpretation of the Qur 'an. The most important conclusion of the study was that Imam Ibne Badis used the MANHAJ SUNANI in interpreting it by downloading SUNAN ILAHIA into the reality of Muslims, applying them to the reform of corrupt doctrinal concepts and perverse intellectual phenomena.

***Keywords***: Tafsir, Manhaj Sunani, Ibne Badis,

**مقدمة:**

اهتم القرآن الكريم ببيان سنن الله تعالى في سير الحياة البشرية، وحثَّ على توجيه الأنظار إلى سنن الكون المادي للتعامل معها وحسن تسخيرها، ونجد هذا جَليّا في الكم الكبير من الآيات المتعلقة بموضوع السنن، وتطرق لها القرآن الكريم إما تصريحا أو ضمنا من خلال الحديث عن الأمم السابقَة وما حل بهم من حسن أو سوء العاقبة، والدعوة إلى السير في الأرض، والنظر في أحوال السابقين لغاية الاعتبار وأخذ الدروس، كما نجد الحديث عن سنن الهدى والضلال، والنصر والهزيمة، والفتنة والابتلاء، والتدافع بين الحق والباطل... مع ترتيب الجزاء العادل على كل منها ، وكلُّها قوانين ثابتة ومطردة لا يمكن لنظام الكون أن ينفك عنها.

وهذا كله يدفع إلى لفت الانتباه إلى هذا الجانب المهم من فقه القرآن وكنوزه الهدائية، وأثره في إحداث التغيير المجتمعي. وقد تفاوت اهتمام المفسرين في الاعتناء به بين مقِلٍ ومكثِر، وكان المصلحون والأئمة يهتمون به اهتماما بالغا حتى ارتقى إلى منهجٍ في التفسير له أسسه وطرائقه، وممن اهتم به في الجزائرَ الداعية المصلح عبد الحميد ابن باديس، الذي وظف المنهج السني في تفسيره، وساهم في إحياء الثقافة السننية عند المسلمين، وهذا ما يدفع للبحث في موضوع: المنهج السني في تفسير الإمام عبد الحميد ابن باديس.

**الإشكالية:**

إن الاهتمام بالمنهج السني في التفسير وفي ظروف نشأته ثم ازدهاره، كان على أيدي علماء ومفسرين لهم خصائص فكرية ومنطلقات اصلاحية، تتمحور كلها حول إمكانية التغيير والارتقاء بالإنسان والمجتمع إلى الأحسن، ويبحث هذا الموضوع في المنهج السني عند الإمام ابن باديس: كيف تم توظيفه له، وما هو أثره على تفسيره؟

**أهداف البحث:**

يهدف هذا البحث إلى التنبيه على قيمة الدور الإصلاحي الذي يمكن أن يقوم به المفسر انطلاقا من القرآن الكريم.كما يسعى إلى لفت الانتباه للمنهج التفسيري الذي اتخذ من فقه سنن الله تعالى في الأنفس والأكوان مجالا خصبا إلى الإصلاح الاجتماعي. وكذا التنويه بجهود المفسرين الجزائريين الذين اهتموا بهذا المنهج في التفسير، وأبرزهم الإمام المصلح عبد الحميد ابن باديس.

**المنهج المتبع:**

ينطلق البحث من المنهج الوصفي في وضع الإطار المعرفي للمنهج السنني في التفسير، ثم المنهج التحليلي عند الرجوع إلى تراث الإمام ابن باديس وخصوصا تفسيره مجالس التذكير لتحليل عناصر المنهج السنني في تفسيره.

**المبحث الأول: معالم منهج التفسير السنني.**

شكل علم التفسير عامل جذب للمفكرين والعلماء كونه النص التأسيسي لشريعة الإسلام ومحور استمداد أحكامها، وقد كان اشتغالهم به من ناحية التفسير متقدما في الزمن ومتفوقا على كل العلوم الأخرى.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المعلم الأول في كيفية التعامل مع القرآن، والقدوة الحسنة في سلوك منهج الاستنباط منه والاستدلال به؛ فكانت كلمة الشرع موحدة في شخصه، ومستمدة من سنته.

وبعد انقطاع الوحي بوفاته صلى الله عليه وسلم، توجَّه الناس إلى كتاب ربهم يستشرحون ما استجدَّ لهم من قضايا وأحداث؛ فكان القرآن هو الإمام الذي يأتمُّ به المسلمون، ويرجعون إليه في كل أمر فيه صلاح لمعاشهم ومعادهم.

ثم اشتدت الحاجة إلى مزيد شرح وبيان لآياته، لبعد الناس شيئا فشيئا عن كمال الفصاحة وحسن البيان؛ فرجعوا إليه يحاولون إدراك ما خفي عليهم من مقاصده ومراميه، ويستخرجون منه أصول عقيدتهم دفعا للشبه المتواليات، ويبحثون في طبيعة القرآن للوقوف على أسرار عظَمته وأسباب إعجازه؛ فقد عرفوا أنه المعجزة الكبرى لنبيهم، وكذلك التمسوا من القرآن أفصح ما عُرف من لغة العرب في مفرداتها وتراكيبها، وفي مظاهر الإبداع التي يختص بها الفن الأدبي الذي برعوا فيه منذ كانت لهم حياة على وجه الجزيرة.

**المطلب الأول: الهداية الإنسانية محور القرآن الكريم.**

عرفت مناهج المفسرين تشعُّباً كبيرا بحسب ميولات المفسر العلمية، والحاجات العلمية الملائمة لكل عصر، في مقابل البعد عن الواقع المجتمعي والتغيرات الطارئة على البيئات؛ فاتسعت الهوة بين الدرس التفسيري ومتطلبات الإصلاح في المجتمع، وغزت النظرة الجزئية على منهج التفسير. ويلخص الإمام محمد الغزالي هذه المشكلة بقوله: «إن الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أنْ تكون حضارة كاملة، فأَخذُه على أنه مجموعة قصص مثلا ودراسة فن القصة على أساس أن القرآن كله قصص قرآني لا يمكن أن يكون تصويرا صحيحا للقرآن، وكذلك الأحكام التشريعية والمعتقدات الإلهية، والآيات التي تأمر بالنظر في الكون، وآيات التربية، وما إلى ذلك من تعاليم إسلامية هي متماسكة في عصارة واحدة تجمعها من أولها إلى آخرها، ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب، وأنسى الجانب الآخر »[1].

فالنظرة الجزئية شكَّلتْ عامل حجب لهداية القرآن العامة والشاملة لكل مناحي الحياة، ونسجا على هذا المدلول ذهب محمد الغزالي إلى أن الآيات الخاصة بالأحكام التشريعية هي أقلُّ عددا إذا ما قيست بالآيات الأخرى[2] التي تتحدث عن أحوال الأمم ومصائرها، وعن وسائل هداية الخلق.

وأمام هذا الواقع، لجأ كثير من العلماء إلى التركيز على جانب آخر من منهج التفسير، يحاولُ تلبيةَ احتياجات العصر، ويسعى إلى مواكبة مشكلاته، واستمداد الحلول الإصلاحية لأحواله المتأزمة انطلاقا من آيات الذكر الحكيم.

والمحور الذي انطلق منه هذا المنهج وسار عليه، هو من وصف القرآن الكريم نفسه أنَّه كتاب هداية للناس جميعا، دون اختصاص بزمان معين ولا فئة من البشر.

قال تعالى: ﴿ أَلَمَ (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:02،01].

وقال أيضا: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:138].

وقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:16،15].

وقال:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:09].

وغيرها من الآيات التي تجتمع حول وصف هداية الناس من حال الضلالة إلى حال الرشاد، وبهذه الرؤية انطلق العلماء في نهج جديد من التفسير، يعتمد على الهداية القرآنية من سنن الله تعالى المبثوثة في القرآن، لغاية إعادة بعث الركود الحضاري للمجتمع المسلم، وذلك يكون ببناء الفرد بناء قرآنيا يكسبه الفعالية الحضارية.

**المطلب الثاني: مفهوم المنهج السني في التفسير.**

إن الحاجة إلى استثمار تلك الهداية التي أتى بها القرآن هي التي ألجأت العلماء الإصلاحيين إلى الاحتفاء بمنهج التفسير السنني، وهو ما يعتمد فيه المفسر على إبراز السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم وعلى مقتضى قوانينها المبثوثة في الآيات والمستخلصة في قصص القرآن الكريم وتشريعاته.

**أولا: تعريف السنة الإلهية**

السُّنَّة بضم الميم تأتي في لغة العرب[3] على عدة معان منها: الوجهُ لصقالته وملاسته، أو حرُّه وهو صَفْحَةُ الوجه أو دائرتُه، والصورة، والسيرة حسنة كانت أو قبيحة. قال الأزهري: السنة الطريقة المحمودة المستقيمة ولذلك قيل فلان من أهل السنة، معناهَ: من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة[4]، وتُجمع على (سنن) بالسين المثلثة أجودها بفتحتين، « يقال تنح عن سَنَن الطريق وسُنَنه وسَنَنه»[5].

هذا من حيث المدلول اللغوي لكلمة سنة، فهي تدور حول معنى الاطراد والجريان على نسق واحد منَ غير خفاء، قال ابن فارس: «السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي، أسنه سنا»[6].

وعند ملاحظة المركب الإضافي (سنة الله) فهو عند صاحب اللسان: «سنَّةَ الله أَحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله للناس بيَّنها، وسنَّ الله سنَّة أي: بيَّن طريقا قويما، قال الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ الله في الذينَ خَلَوْا منْ قَبْلُ ﴾ [الأحزاب:38] »[7].

أما تعريف السنة في الاصطلاح، فالنظر فيه يَكون مَن وصفَ القرآن لمصطلح السنة ومن الاستعمال القرآني له، فقد ورد لفظ السنة ومشتقاته في القرآن الكريم ستة عشر مرة، وفي إحدى عشرة آية، ورد مفردا في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ من قَبْلكُمْ سُنَنٌ فَسيرُوا في الَأرْض فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُكَذّبينَ ﴾ [آل عمران:137]، ومضافا في الباقي إلى ذات الله جل وعلا، أوَ الضمَير العائد علَى لفظَ الجلالةَ في تسع مواضع [8]، وإلَى الرسل َمرةَ واحدة: ﴿سنَّةَ من قَدَ اَرسلْنا قبلَكَ منْ رُسُلنَا﴾ [الإسراء:77] الآية، وفي الباقي إلى الأمم السابقة[9].

فالقرآن الكريم جاء بمصطلح "السنة الإلهية" في معنى موحد، وهو: بيان طريقة الله تعالى وعادته الماضية في التعامل مع الأمم السابقة، وعليه فالسنة الإلهية في القرآن الكريم تشكل **مصطلحا قرآنيا** [10] بهذا الثبات والاطراد في المعنى.

وإضافةُ السنة لله تعالى هي إضافةٌ حقيقية، وتضاف إلى المرسلين لأدنى ملابسة، كقوله تعالى: ﴿ سنَّةَ من قَدَ اَرسلْنا قبلَكَ منْ رُسُلنَا وَلَا تَجدُ لسنَّتنَا تَحْويلًا ﴾ [الإسراء:77] والتقدير: سننًا ذلك لمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أي: لأجلهم، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجدُ لَسنَّتنَا تَحْويلًا ﴾ الآيةَ [الإسراء:77][11]؛ كما تضاف إلى الأولين وهم الأمم السابقة الآخذُون في الضلال والعناد، من قَبيل «إضافة المَصدَر إلَى فاعله أي: السنة التي سنها الأولون. و[هي] طريقتهم في الكفر، وتكذيب الرسل، والاستخفاف بهم »[12].

وعلى هذا فلفظ السنة في القرآن الكريم رغم اختلاف مضافاته فإنه يؤول على معنى واحد وهو سنة الله تعالى.

وقد حاول العلماء إعطاء تعريف مناسب للسنة الإلهية، شامل لما ورد في معناها من القرآن الكريم والسنة النبوية، فابن جرير رحمه الله يعرفها بقوله: «السنة هي المثال المتبع، والإمام الْمؤتَمُّ به»[13]. وقال ابن تيمية رحمه الله: «السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل فعل بنظيره الأول، لهذا أمر سبحانه بالاعتبار، قال تعالى:﴿ فَاعْتبرُوا يَا أُولي الَابْصَار ﴾ [الحشر:02] »[14]، وعرَّفَها الشيخ الألوسي بقوله: «عادة الله الجارية »[15].

نستخلص من ذلك أن السنة الإلهية تعبّرَ عن **قانون إلهي عام** يخضع له الأفراد كما المجتمعات، وينالونَ نتائجه إن هم ساروا على قواعده.

ومن تعريفات المعاصرين: يقول الدكتورَ الطيب برغوث: « هي الأنساق الخلقية الهيكلية، أو البنيوية المنتظمة في المفردات الكونية،

لتضمن أداء كل مفردة منها لوظيفتها الوجودية الداخلية والخارجية في النسيج الكوني العام باطراد، سواء تعلق الأمر بمفردات عالم الآفاق، أو عالم الأنفس، أو عالم الهداية، أو عالم التأييد»[16].

ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان بقوله: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم، وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة »[17]، وهو التعريف الأوفق بمفهومها الاصطلاحي.

**ثانيا: أنواع السنن الإلهية**

يمكن الحديث عن تنوع السنن بناء على تعدد مجالات انطباق أحكامها؛ لأن السنن كلها من عند الله تعالى، لكنها في المقابل تتجسد في الواقع باعتبارات مختلفة:

وعموما فهي نوعان باعتبار ما تتحكم فيه: سنن تتعلق بالمادة، وسنن تتعلق بالأنفس وحياة الأفراد والجماعات البشرية.

**فالأولى** يدخل فيها كل ما يحيط بنا من ظواهر كونية في السماء والأرض، كحركة الأفلاك، وتعاقب الليل والنهار، وما يدخل في تركيب بنية الإنسان الداخلية كأطوار خلق الإنسان. وهاته السنن حاكمة علينا اضطرارا لا اختيارا؛ فلا مجال لنا في التحكم بسيرها، وإنما حظ الإنسان منها إدراك قوانينها، لأجل الاستفادة منها عن طريق النظر والتأمل فيها.

وقد وردت آيات كثيرة تعرف الإنسان بهاته القوانين وتحضه على التعامل معها وحسن تسخيرها، قال تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13]. قال سيد قطب رحمه الله: «فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه، وهو منشئه ومدبره، وهو مسخره أو مسلطه.

وهذا المخلوق الصغير –الإنسان– مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية، يسخر به قوى هذا الكون، وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس، وكل ذلك من فضل الله عليه. وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات »[18].

وهذا النوع من السنن عامٌّ لجميع البشر، غير مختص بالمسلمين، وأكثرهم اجتهادا وحرصا على إدراك قوانينه أقدرهم على التعامل معه والاستفادة منه، وسنن هذا النوع متعددة بقدر تعدد العلوم واكتشافات المادة، ويمكن أن نطلق عليها "**سنن التسخير**"، لأن حظ الإنسان منها تسخيرها لخدمته في معاشه.

**أما النوع الثاني**، فهو ما تعلق بتصرفات البشر وأحوالهم، فهو أكثر ورودا في القرآن الكريم، وله أقسام متعددة: فهناك سنن متعلقة بالنفس البشرية والأفراد، وسنن تتعلق بالجماعات، وسنن عامة للمسلمين وغيرهم، وسنن خاصة بالمسلمين، وسنن تظهر نتائجها في الدنيا، وأخرى تتعلق بالدنيا والآخرة.

ويمكن اعتبار السنن المتعلقة بحياة البشر حاكمةً على سنن المادة، فهما وإن اتفقا في ترتُّب نتيجتهما على مقدمات، إلا أن سنن المادة قد تتغير حيث تُفسح المجالَ لتحكّم سنن الحياة البشرية بها، فسنة النار هي الإحراق، لكن الأمر لَمَّا تعلق بسنة الله في نصر أوليائه —كما هو الحال في قصة إبراهيم عليه السلام عند توقفهم على المستطاع من الأسباب، نُزعت من النار خاصيتها بقدرة الله تعالى. وهذا الخرق لسنن المادة إنما هو خرق لما اعتاده الناس، وليس خرقا لقانون السببية؛ لأنه يكون بأسباب أخرى غير معهودة لهم.

ويوضح ابن باديس سنن الله تعالى بنوعيها في تفسيره فيقول: «إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة؛ فلا يستقل بتفسيره إلّا الزمن.. فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلّا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون..والعلماء القوّامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونهما بالفكر الخامد، والفهم الجامد؛ إنما يترقبون من **سنن الله في الكون**، وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم »[19].

فالنوعان يشكلان مزيجا لهذا الكون بقسميه: المادي، والمعنوي. والفرق بينهما هو في درجة الظهور ومقدار وضوحهما للناس. وكان الغالب على المفسرين التطرق للسنن المتعلقة بحياة البشر والأمم لأهميتها القصوى في تغيير ذهنيات الناس، وتصحيح مسارهم، وتفعيل دورهم في هذا الكون.

**المطلب الثالث: مميزات منهج التفسير السنني**

تعتبر السنن الإلهية من قضايا الإعجاز القرآني المتعلق بسير هذا الكون وإبداع تناسق مكوناته، وقد غفل عن هذا الجانب كثير ممن اعتنى بألوان الإعجاز، فالسنن تُحَدّثنا عن نتائج لا يمكن أن تتخلف في المستقبل، كما لم تتخلف في الماضي، وفي هذا مجالٌ رحب لعلماء الإسلام كي يستشرفوا أحوالَ أمم الأرض جميعا وما يكَنُّ لها من مصائر، وليجعلوا السنن من أظهر الأدلة على وجود الله تعالى وحسن إبداعه وتدبيره لهذا الكون، يقول ابن باديس: «القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم أنه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن.

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم، وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم، في كل قطر وفي كل زمن: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيَّن من أسرار الكتب الماضية. وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة، كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها. وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم.

فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق »[20].

كما أن وجود السنن في القرآن الكريم مضبوطة بمقدماتها ونتائجها « لم تكن لتتحقق لأُمّي يعيش في وسط الأُميين، بعيد كل البعد عن الطرائق العلمية ووسائلها »[21].

فالباحث عن هاته السنن يحتاج لتجارب علمية متعددة على مراحل التاريخ البشري؛ فكانت مظهرا من مظاهر إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بالإضافة لكونها تسلية له بغيره من المرسلين، وما كانوا عليه مع أقوامهم من تكذيب.

ووجود السنن في القرآن الكريم مما يميزه عن غيره من الكتب السماوية التي خلت من هذا الجانب، يقول محمد رشيد رضا: «[ السنن] إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أُرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن»[22].

وهذا كله يجعل منهج التفسير بالسنن الإلهية يحقق مبدأ الشمولية في معالجة القضايا الاجتماعية، لأن السنن تنطبق على جميع مجالات الحياة، وشموليتها ليست مقتصرة على زمن معين وعصر مخصوص، بل هي تستوعب الزمن كله، ومن شموليتها أن أسبابها الموصلة إلى نتائجها مبذولة لكل الناس. ومن ذلك أن يتساوى الناس أن يتساوى الناس في «أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما [وهاته الأسباب] مبذولة للخلق على السواء، ومن تمسك بسبب بلغ بإذن الله إلى مسبَّبه، سواء أكان برا أو فاجرا، مؤمنا أو كافرا »[23].

وكدليل عليه قولُه تعالى: ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء:20]، فانطلاقا من هذه الآية يعالج ابن باديس قضية تأخر المسلمين عن ركب الحضارة، مبرزا خاصية الشمولية، فقال: «وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم. وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلّها بإهمال تلك الأسباب؛ فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعُوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب»[24].

كما أن المفسر ضمن هذا المنهج لا بد أن يراعي المتطلبات المتجددة للواقع، فلا ينفصل عنه في استصدار الحلول القرآنية، بل يجريها على ما يلائم الظروف والبيئات، وهذا ما يجعله يكتسب صفة التجدد في المعالجة، فلكل بيئة ما يوافقها ويلائمها.

**المبحث الثاني : توظيف المنهج السنني في تفسير ابن باديس.**

إن الباحث في التفاسير ذات المنحى الإصلاحي، أو في فكر العلماء المصلحين يجد ذلك الاهتمام الكبير بفقه السنن الإلهية؛ فإن كان من المفسرين، فإنَّك تجد تفسيره قد اصطبغ بقوانينها، مسقطا إياها على الواقع الاجتماعي، ومبرزا الحلول الإصلاحية الممكنة منها.

ويؤكد محمد رشيد رضا على هذا التوجه بقوله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أنَّ له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه؛ فيجب على الأمة أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم»[25].

والإمام ابن باديس يعتبر أحد رواد منهج التفسير الإصلاحي، وهذا المنهج في التفسير قد اعتمد على بيان السنن الإلهية وإسقاطها على أحوال المسلمين لكشف سبل النهوض الحضاري بالأمة.

**المطلب الأول: السنن الإلهية وتحقيق الاستخلاف والشهود الحضاري في تفسير ابن باديس**

خدم ابن باديس السنن الإلهية خدمة متميزة في تفسيره "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" على اعتبار أن السنن من أبرز مظاهر الهداية القرآنية للإنسان المسلم، وعالج من خلالها ما كان سائدا في زمنه من أفكار وعقائد فاسدة، وراح ينزِلُ منها ما يراه مناسبا لحال المسلمين أفرادا وجماعات لاستعادة نهضتهم، والقيام بدورهم المنوط بهم، وهو تحقيق الاستخلاف والشهود الحضاري على أمم الأرض جميعا، وفي هذا المعنى يقول: « ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض، وسيادة الأمم.. من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وكل محاولة لصدّها عن غايتها وهو آخذٌ بها مقضيٌّ عليها بالفشل. سنة الله، ومن ذا يبدلها أو يحولها ؟ ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر:43] »[26].

ومن الأمثلة على ذلك: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:58] يستخلص ابن باديس من هذه الآية سنة ربانية ماضية في خلقه، وهي أن لكل أمة من الأمم ثلاثة أطوار تمر بها كالأفراد تماما.

**طور الشباب**: الذي يشمل نشأتها إلى غاية استجماعها قوتها ونشاطها.

**وطور الكهولة**: ويشمل ابتداء أخذها في التقدم والانتشار، وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها، وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك، بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من استعداد، وما لديها من أسباب.

**وطور الهرم**: وفيه يبدأ التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال، وهو أكثر الأطوار ذكرا في القرآن الكريم[27].

ويذكر لنا ابن باديس أن «ما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34] »[28]، ثم يفصل في أحوال هذه الأطوار، وهكذا في معظم محطات تفسيره، يتوقف عند الآيات المتضمنة للسنن ويفصل فيها.

**المطلب الثاني: السنن الإلهية والإصلاح الاجتماعي في تفسير ابن باديس**

اهتم الإمام ابن باديس في تفسيره بتنزيل السنن الإلهية على الجماعات المسلمة، انطلاقا من حرصه على معالجة الأمراض والآفات الاجتماعية العائدة على جماعة المسلمين، بغض النظر عن آحادهم؛ فإنَّ من السنن ما لا تظهر نتيجتها ولا تنطبق أحكامها جلية إلا على الجماعات التي تتفاوت في تعدادها، فقد تكون ذات عدد قليل تنشطُ في حقل دعوي أو اجتماعي، وقد تكون مجتمعا متكاملا.

**مثال ذلك**: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:62]، فموضوع الآية هو التحذير من مفارقة النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه إذا جمع المسلمين على أمر عام من أمور السلم أو الحرب، أو شأن من شؤون الحياة، وألا يخالفوا مجلسه إلا بإذنه، وأكد هذا الأمر بما وطأ له من ذكر الإيمان بالله ورسوله، تنبيها على أنه من مقتضاهما.

وبقرنه بهما وجعله ثالثا لهما، تعظيما لشأنه، وتنبيها على ملازمته لهما ممن صدق فيهما؛ حتى كأن غير المستأذنين لا إيمان لهم[29].

فابن باديس من خلال هاته الآية يُحيي في نفوس الناس أمر الجماعة ووجوب اتحادها، ويحذر من مغبَّة التفرق والتشتت عن طريق المخالفة لأئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم، فالآية وإن أتت في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنَّ أحكامها مستمرة «عامة للمسلمين في كل زمان وكل مكان، مع أئمتهم وقادتهم المقدَّمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام »[30].

يقول ابن عاشور: « هذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع »[31].

وسنة الله ماضية وقاضية بأنَّ يدَ الله مع الجماعة، وأنَّ نصرتَه وتأييده حاصل للمسلمين ما دامت صفوفهم مجتمعة، وكلمتهم موحدة، يقول ابن باديس: «**توجيه وإرشاد:**

إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظَّمة تفكر وتدبر، وتتشاور، وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة؛ ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الإيمان بالله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع، فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام»[32]. وبالمقابل فإنَّ إهمالَ أمر الاجتماع ووحدة الصف والاختلاف والاستبداد بالرأي قاضٍ على جماعة المسلمين بالضياع، وفساد الرأي والتنازع فيه.

وهنا ينزل ابن باديس هاته المعاني، ويقيسها بواقع أمته الإسلامية التي انفرط عقدها، وسرى فيها الانقسام والتشتت، فيقول: «**موعظةٌ**: ما أُصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلاَّ بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه: إمَّا باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، وما ذلك إلا من سكوت علمائهم، وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين، وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين »[33].

وهاته الروح الجماعية التي حرص ابن باديس على إحيائها وبثها في نفوس الناس، لا بد أن تكون عند كل فرد من أفراد المجتمع، ولهذا نجده قد أخذ من **قصة النملة مع سليمان وجنوده** عظةً بالغة في دور الفرد الواحد وفعاليته داخل نطاق جماعته وأمته، ووظف في ذلك الفطرة الإنسانية التي تميل بالإنسان إلى بني جنسه، فمن قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:18] يضع عنواناً فرعيا موافقا لماَ هو بصدده من التطبيق العملي التربوي، فيقول:

«**عَبرةٌ وتعليم:**

عاطفة الجنسية غريزةٌ طبيعية، فهذه النملة لم تهتمَّ بنفسها؛ فتنجو بمفردها.

ولم ينسها هولُ ما رأَت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها؛ إذْ كانت تدرك بفطرتها أنْ لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار.

ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تَذْكُر عذر سليمان وجنده.

فهذا يُعَلِّمنا أنْ لا حياة للشخص إلا بحياة قومه، ولا نجاة له إلا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم.

ومظهر هَذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها»[34].

نخلص من هذا إلى أن ابن باديس لدى تطبيقه لأحكام السنن، وتنزيلها على واقع أمته لم يكن يطرح الحلول النظرية المجردة البعيدة عن الواقع، والتي لا يمكن أن تجد سبيلها إلى التطبيق؛ بل كان يتلمس منها أنجعها وأحكمها، في قالب ميسَّرٍ للفهم والتطبيق، مرتبطٍ بآيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

**خاتمة:**

بعد هذه الجولة مع موضوع السنن الإلهية واستعراض أهم العلماء الذين تنبهوا لضرورة البحث فيها، نخلص إلى مجموعة من النتائج:

– السنن الإلهية من ترتبات الحكمة الإلهية في خلق هذا الكون وحسن تدبيره لأمور سَيْرِه، وهي في أنواعها تشمل نظام الحياة وجوانب هذا الكون المادي.

– السنن الإلهية ثابتة لا تتغير، وعامة لا تحابي أحدا، ومطردة لا تتخلف، أجرى الله تعالى نظام الكون على وفقها.

– استفاد الإمام ابن باديس في تفسيره من السنن الإلهية من خلال تنزيلها على واقع المسلمين انطلاقا من توظيفها في إصلاح المفاهيم العقدية الفاسدة، والظواهر الفكرية المنحرفة.

**مراجع البحث:**


– الغزالي محمد، عمر عبيد حسنة– *كيف نتعامل مع القرآن*–المكتب الإسلامي–بيروت–ط:02–1420هـ/1999م.

– الزبيدي مرتضى–*تاج العروس*–ت:مصطفى حجازي–المجلس الوطني للثقافة–الكويت.

– الأزهري أبو منصور – *تهذيب اللغة*–ت: محمد عوض مرعب–دار إحياء التراث العربي–بيروت–لبنان–ط:01–2001م.

– الأصفهاني الحسين بن محمد – *معجم مفردات ألفاظ القرآن* –ت: يوسف البقاعي–دار الفكر–ط:01– 1431هـ/2010م.

– ابن فارس أحمد–*معجم مقاييس اللغة*–ت: عبد السلام هارون–دار الفكر–ط:01–1399هـ /1979م.

– ابن منظور محمد– *لسان العرب*–الناشر:دار صادر–بيروت–لبنان–ط:01–د.ت.ط.

– الطيار مساعد بن سليمان–*التفسير اللغوي للقرآن الكريم*–دار ابن الجوزي–ط:01–1422هـ.

– ابن عاشور محمد الطاهر– *تفسير التحرير والتنوير* –الناشر:دار سحنون–تونس–د.ت.ط.

– الطبري محمد ابن جرير– *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*–ت:عبد الله التركي– دار هجر–القاهرة–مصر–ط:01– 1422هـ/2001م.

– ابن تيمية أحمد–*مجموع فتاوى أحمد ابن تيمية* – جمع وترتيب:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد–مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف–المدينة النورة–السعودية–د.ر.ط–1425هـ/2004م.

– الألوسي شهاب الدين البغدادي –*روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني*–دار إحياء التراث العربي–بيروت–لبنان –د.ت.ط.

– برغوث الطيب– *الفعالية الحضارية والثقافية السننية*– دار قرطبة– الجزائر– ط:01– 1425هـ/2004م.

– زيدان عبد الكريم – *السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية*–مؤسسة الرسالة–بيروت–لبنان–ط:03–1431هـ/2010م.

– قطب سيد–*في ظلال القرآن*– دار الشروق–بيروت–لبنان–ط:03–1977م.

– ابن باديس عبد الحميد – *تفسير ابن باديس:في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير*–دار الكتب العلمية–بيروت–ط:02–1424هـ/2003.

– عاشور مجدي محمد–*السنن الإلهية في الأمم والأفراد*–دار السلام–مصر–ط:02– 1428هـ/2007م.

– رضا محمد رشيد– *تفسير القرآن الحكيم الشهير بـ:تفسير المنار–دار المنار*–القاهرة–مصر–ط:02–1366هـ/1947م .


**الحواشي**

[1]– **الغزالي** محمد، عمر عبيد حسنة– كيف نتعامل مع القرآن–المكتب الإسلامي–بيروت–ط:02–1420هـ/1999م–ص:94.

[2]– **الغزالي** محمد ، عمر عبيد حسنة– المرجع نفسه–ص:60.

[3]– **الزبيدي** مرتضى–تاج العروس–ت:مصطفى حجازي–المجلس الوطني للثقافة–الكويت–ج:35/ص: 230

[4]– **الأزهري** أبو منصور – تهذيب اللغة–ت: محمد عوض مرعب–دار إحياء التراث العربي–بيروت–لبنان–ط:01–2001م–ج:12/ص:212.

[5]– **الأصفهاني** الحسين بن محمد – معجم مفردات ألفاظ القرآن –ت:يوسف البقاعي–دار الفكر–ط:01– 1431هـ/2010م–ص:184.

[6]– **ابن فارس** أحمد–معجم مقاييس اللغة–ت: عبد السلام هارون–دار الفكر–ط:01–1399هـ /1979م –ج: 03/ ص: 60.

[7]– **ابن منظور** محمد– لسان العرب–الناشر:دار صادر–بيروت–لبنان–ط:01–د.ت.ط–ج:13/ص:220.

[8]– وهي المواضع التالية: –**الإسراء**:77،في الموضع الثاني من الآية.

–**الأحزاب**:38. والآية:62 مرتين.

–**فاطر**:43 مرتين.

–**غافر**:85.

–**الفتح**:23 مرتين.

[9]– في المواضع التالية: –**النساء** :26 .

–**الأنفال** :38.

–**الحجر**:13.

–**الكهف**:55.

–**فاطر**:43 في الموضع الأول من الآية.

[10]– **المصطلح القرآني**: هو اللفظ من القرآن الكريم الذي يأتي على معنى واحد في جميع مواضعه، بحيث لايحتمل غير هذا المعنى .ينظر: **الطيار** مساعد بن سليمان–التفسير اللغوي للقرآن الكريم–دار ابن الجوزي–ط:01–1422هـ–ص:104.

[11]– **ابن عاشور** محمد الطاهر– تفسير التحرير والتنوير –الناشر:دار سحنون–تونس–د.ت.ط–ج:15/ص:180.

[12]– **ابن عاشور** محمد الطاهر – المرجع نفسه–ج:15/ص:350.

[13]– **الطبري** محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن–ت: عبد الله التركي– دار هجر–القاهرة–مصر–ط:01– 1422هـ/2001م– ج:07/ص:230.

[14]– **ابن تيمية** أحمد–مجموع فتاوى أحمد ابن تيمية – جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد–مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف– المدينة النورة–السعودية–د.ر.ط–1425هـ/2004م– ج:13/ص:20.

[15]– **الألوسي** شهاب الدين البغدادي –روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني–دار إحياء التراث العربي–بيروت–لبنان –د.ت.ط– ج:09/ص:206.

[16]– **برغوث** الطيب– الفعالية الحضارية والثقافية السننية– دار قرطبة– الجزائر– ط:01– 1425هـ/2004م– ص:32.

[17]– **زيدان** عبد الكريم – السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية–مؤسسة الرسالة–بيروت–لبنان–ط:03–1431هـ/2010م– ص:13.

[18]– **قطب** سيد–في ظلال القرآن– دار الشروق–بيروت–لبنان–ط:03–1977م–ج:25/ص:3226.

[19]– **ابن باديس** عبد الحميد – تفسير ابن باديس:في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير –ص:377.

[20]– **ابن باديس** عبد الحميد– تفسير ابن باديس –ص:160.

[21]– **عاشور** مجدي محمد–السنن الإلهية في الأمم والأفراد–دار السلام–مصر–ط:02– 1428هـ/2007م–ص:122.

[22]– **رضا** محمد رشيد– تفسير القرآن الحكيم الشهير ب: تفسير المنار–دار المنار–القاهرة–مصر–ط:02–1366هـ/1947م –ج:04/ص: 140.

[23]– **ابن باديس** عبد الحميد –مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير –ص:59.

[24]– **ابن باديس** عبد الحميد –تفسير ابن باديس –ص:59.

[25]– **رضا** محمد رشيد– تفسير القرآن الحكيم الشهير بـ:تفسير المنار––ج:04/ص:140.

[26]– **ابن باديس** عبد الحميد – تفسير ابن باديس–ص:350.

[27]– **ابن باديس** عبد الحميد – تفسير ابن باديس –ص:122.

[28]– **ابن باديس** عبد الحميد– المرجع نفسه–ص:123، 122.

[29]– **ابن باديس** عبد الحميد – المرجع نفسه –ص:334

[30]– **ابن باديس** عبد الحميد – تفسير ابن باديس –ص:335.

[31]– **ابن عاشور** محمد الطاهر – تفسير التحرير والتنوير– ج:18/ص:308.

[32]– **ابن باديس** عبد الحميد – المرجع نفسه –ص:335.

[33]– **ابن باديس** عبد الحميد – المرجع نفسه –ص:336،335.